من أدب السودان :

الشرارة الأولى . . .

للأســـتاذ عثمان طه شاهين

أخذت المدينة بأجمعها تستروح النسيم العليل ودلف إبراهيم — كعادته — إلى الشاطىء ليلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة من عناء يومه المتصرم وليستقبل الحياة الجديدة فى غده السعيد ، بيد أن إبراهيم لم يستطع أن يتخلص من تأملاته إلا قليلا إذ كانت روحة شاردة كأنها تريد أن تبحث عن سر الصمت العجيب الذى يلف الكون والناس والأشياء ، فأخذ يتجه ببصره إلى الأنوار الجميلة التى تبعثها قصور المدينة وطرقاتها ، مودعة النهار ، مستقبلة الليل كما يستقبله الأحياء ...

جلس إبراهيم على مقعد خشبي تجاه الشاطىء يرقب المياه المصطخبة ويتمثل الحسن الرائع الذى سكبته الشمس على الشاطىء وهى تكاد تودع يومها المكدود ، والناس من حوله فرحون مستبشرون ضاحكون عابثون فى أغلب الأحيان ، ولكن صاحبنا شارد اللب ، ساهم الطرف ، والرؤى والأشباح تتراءى أمام ناظريه فى هذه اللحظة السعيدة ، وكل ما فى الوجود ينبىء عن شىء جديد ... أخذت الشمس تبتعد شيئاً فشيئاً وأخذ الأصيل يفقد بهجته ورواءه ، وجيوش الظلام مسرعة ، ملحفة فى الإسراع ، والناس فرحون مستبشرون يودعون الأصيل الحبيب كما ودعوا نهارهم الذى كانت فيه بقية من قيظ وسحابة من عبوس ، وأخذ إبراهيم يبعد نفسه عن المقعد الخشبي الذى ألف الجلوس عليه عند الشاطىء ليستقبل الليل ...

آوى إلى غرفته يطلب الراحة والاطمئنان وترددت فى نفسه هذه الأحاسيس المتباينة من أضواء الحياة ومسارها وأخذ يستعيد الصور الجمة المتباينة ليبتعد بها عن عالم المحسوس ... أخذت الخليقة تسلم أنفاسها لسلطان الكرى ، وأخذت جيوش الظلام تتسلل إلى المدينة رويداً رويداً حتى لفتها بالغطاء الوحش الكئيب ، وأضواء المصابيح تبدو خافته باهتة أمام هذا السكون ، وإبراهيم يتطلع من نافذته ليبصر الكون ، والكون — من حوله — صامت لا يبين ، والأغصان هادئة ساكنة والدجى مهود وسنان . يسرح الطرف ناظراً إلى بعيد ، محاولا سبر المستقبل ومعرفة الغد القريب ، بيد أن المستقبل عالم مجهول . وأحداث الماضى تتراءى ماثلة للعيان ، وسر الحياة عنده لغز حار فيه الفلاسفة والمصلحون ، والرؤى والأشباح ومعالم الحياة والفكر تتراءى أمام ناظريه فى كل عين .

والناس فرحون مستبشرون إلا قليلا وتزدحم أمام صاحبنا الأفكار ويستعرض تاريخ العالم وقصة الإنسان ، فهذا عبقرى أعجبت به الإنسانية وأحبه طلابه المخلصون ، وهذا شاعر غنى على قيثارته فأودع الحياة أناشيدها العلوية الرفيعة فتغنت بها الأجيال ، وهذا فنان سكب روحه فجاءت صورة أو تمثالا ينبىء عن قصة الإيمان بالفن والجمال والجلال ، وهكذا تزدحم الرؤى والأشباح وصاحبنا لا يكاد ينام .. والظلام يمعن فى قسوته وجبروته ، والإنسانية قد أسلمت أنفسها لسلطان الكرى ، وصاحبنا ينصت إلى نداء الظلام والناس من حوله غافون نيام ...

يغمض الفتى عينيه لينام ويدثر نفسه علها تجد الراحة من فرط عالمها الخارجى الذى اضطربت فيه طول النهار ولكن الأشباح ما فتئت تتراءى أمام ناظريه فيحدق فى الظلام من جديد ويفكر فى حقائق الأدب وروعة الفكر وجلال الأداء ؛ وساعات الليل تكاد تتعثر عرجاء ، مثقلة الخطى غير ناظرة إلا إلى المحبين ، والظلام من حوله يلف الكون فى صمت عميق والإنسانية بين أحضان الكرى ؛ والأشباح تتراءى أمام ناظريه من جديد ، فينظر — فى سر وإيمان — إلى أرباب العلم وأساطين الفن ويقدر الجهد المبذول ، ويكبر معالم التضحية والصبر والإيمان ، والناس من حوله هادئون نيام ، والوجود يلقى نظرة صادقة على صعود الحياة وأحلامها الوادعة ، وعمود الفجر يكاد أن ينشق ليسفر الصبح عن نبأ جديد !؟

أخذ الطفل الكبير ينظر إلى الأم التى جاءت لتستقبله كما يستقبل الفرد صباحه الجديد ، وتلهف القلب لرؤيته حتى بدا جلال الكون متمثلا فى روعته البهية ، وأخذت تنشد موسيقى الحنان الأبدى التى تدخرها كل أم لطفلها الحبيب قائلة فى صوت

خفيض : الأمهات من حولى ينعمن بأطفالهن والقلوب عامرة برؤية الأطفال عند كل صباح ، وأنا وحدى أتلفت إليهن ، فرحة بك ، ذاكرة لك ، ولكنك لست بجانبي ... والعصافير تغرد فوق الأغصان ، والطيور تشقشق فرحة بربيع الحياة الندى ، والطبيعة توحى بالروعة والجلال ، وخرير الجداول ينقل إلى سمعى موسيقى الحياة الناعمة ، وعند طرق المدينة ألمح شآبيب النور الحى ، ولكنك عنى بعيد !؟

أتذكر يا طفلى الوحيد يوم ودعتنى متجهاً صوب الشمال ، أتذكر يوم خلفت قلبي الثاكل الآمل ؟ فالقطار الذى تحرك بك إيذاناً إلى وطنك الروحى الأصيل كان بداية عهد جديد فى حياتى تحوك ؛ فى الصباح الباكر أصحو على موسيقى ذكراك الحبيبة وأتلمس أخبارك فى كل آن ، وأنا اليوم أحب الحياة لأنك وهبتها لى ، وهل الحياة إلا فى طفلى وهل طفلى إلا عند الحياة ؟.. كان بكاء الطفولة فيك يؤلمنى ويقبض مضجعى ، وكان مرح الطفولة فيك يملأ قلبي حباً بالحياة وتعلقاً بها ، وأنا الناظرة إليك من أقصى الجنوب يتلفت قلبي إليك ليدرك حياتك بين اللدات والأتراب ، فإذا رسائلك تحمل إلى فرحة الروح والحس والشعور فأزداد إيمانا بالحياة وتعلقاً بالوجود .

إذا ما دعا داعى الحى بأن فيه أحداً قد ذاق المصاب ذكرتك يا بنى واتخذت المصاب مصابى والعلة علتى وأحاطت بى الهموم والأحزان ، وإذا ما أذن مؤذن الحى بأفراح الشباب تهللت أساريرى مرتجية لك مثل ما للداتك الكرام ، وإذا ما عاد أترابك حاملين لأمهاتهم أفراح الشمال تلقيتهم فرحة لأنى أجد فيهم ريح طفلى الكبير ، ولكن دعنى أعرف جوانب الحياة وجوانب الروح فيك ، ودعنى أتحسس ما تريده فى الغد السعيد ..

جلس إبراهيم على مقعده الخشبي تجاه الشاطىء يرقب الناس فى صمت وسكون وإطراق ، وأحاديث الأم تعاوده وتلح عليه وتملأ القلب فيه والشعور والإحساس ؛ والناس من حوله فرحون مستبشرون يستقبلون الحياة فى لذة ونشوة وسرور ، والأمواج تقذف الشاطىء ثم ترتد عنه فى حياء وخجل ، والبساط الأخضر مورق على ضفاف الوادى متحدث فى صمت وسكون ، والفتى تتعاوده أحاديث الأم والقلب والروح ...

جد الفتى خطاه المتثاقلة إلى الدار ، وأخذت الرؤى والأشباح تستعيد صورتها السابقة من جديد ؛ ولجأ إلى كتاب مسطور يتحدث إليه عن الشعر والعلم والفن ولكن جوانب نفسه تزحمه ولا تترك له بقية لنظرة فى كتاب ، فيهرب إلى فراشه علّه يدفن رأسه فيه لينام ساعة من ليل ، ولكن الرؤى والأشباح ما فتئت تطارده فينهض ليقرأ فى صفحة الكون من جديد ...

والظلام المطبق يكاد أن ينجلى شيئاً فشيئاً ، والأصوات الخافتة التى تزحم أنفاس البشر أخذت تتأهب للمسير ، والأشجار المورقة ترسل موسيقاها الخافتة فى هدأة الليل البهيم ، وهمسات الدوح البعيد تستدعيه ليعمل مع العاملين ، ونقيق الضفادع يملأ أذنيه فلا يكاد يترك له بقية عابرة من ليله المنقضى .. ألمت بفتانا إغفاءة الفجر ، وأدرك عند ما استيقظ — أن المدينة أخذت كعادتها تزدحم فى ميدان الحياة العابرة ، وأن لهذه الفنون — التى جذبته بسحرها الرائع وجلالها المكنون — أرباباً عبدوها وقدسوها فكانت متعة للناظرين ، ولكن دقات الزمان ما فتئت تضرب على أوتار الحياة فتوهنها وما برحت تبدد أمامها آثار القوة والعظمة والطموح وهكذا تتجدد الإنسانية وتفنى العصور ويولد الكون من جديد ...

وأخذت الإنسانية تضطرب فى حياتها التى اعتادت منها أن تعيش وأنقضت سحابة النهار كما انقضت بقية الأخوات ، والشاطىء الحبيب يستدعيه ليجلس على مقعده الخشبي ليرقب الأشياء والناس ولكن جوانب النور أخذت تتراءى لديه من بعيد ، وفقد الشاطىء بهجته ورواءه ، والفتى ساهم الطرف ، شارد اللب ، ينظر حوله فلا يرى إلا الوجوه التى أخذت تضحك منذ أن استقبلت الحياة وعرفت الوجود ، فإذا بنشيدها ينقلب أسى وحديثها يصير همساً وضحكاتها المرتفعة تغدو عبوساً مطرقاً ، والشمس تنحدر للمغيب وجوانب الحى تتهيأ لاستقبال الليل كما استقبلت أحاديث النهار ، بيد أن القمر يبسط أشعته الفضية الزاهية على الربى والبطاح فيملأها حياة وجمالا وجلالا ، والنجوم الخفرات تتداعى من فرط استحيائها وجيوش الظلام تكاد تولى هاربة .. وحديث الأم يطرق الآذان من جديد فيصيخ إليه إذ يقول : ومن قدر السماء يا بنى أن تبسم الأمهات لأطفالهن